

بين المسرح وعلم العلامة (1) خصوصيات العلاقة

بقلم: تادوز كاوزن (2)

تعريب: نبيل موميد

تقديم:

ظهرت مخايل نظرية للعلامة في الدراسات المسرحية/الفرجوية منذ الفترة الإغريقية القديمة لدى كل من أفلاطون وأرسطو، قبل أن تبلور مبادئها الأولى بشكل نظري عام في أوروبا على يد "فرديناند دي سوسير"، وفي الولايات المتحدة الأمريكية مع "شارل ساندرس بورس". غير أن الدراسة السيميائية للمسرح بمعناها الأكاديمي لن تظهر إلا في ثلاثينيات القرن العشرين في دولة تشيكوسلوفاكيا (3).

"تادوز كاوزن" Tadeusz Kowzan علامة فارقة في تاريخ الدراسات السيميائية للمسرح، فقد شكلت دراسته سيميولوجيا المسرح (وهي التي قمنا بتعريب فصلها الأول هنا) تعبيد الطريق لغيره من المهتمين بالمجال، من أجل تعميق المقاربة وفتحها على آفاق أرحب. وتكمن أهميتها أيضا في أنها تعتبر بمثابة مرجع مركبي يأخذ بعين الاعتبار في نفس الآن كل الدراسات السابقة عليه، والتي اهتمت بدراسة المسرح ومختلف الأشكال الفرجوية من زاوية سيميائية، وأيضا يدرس الظاهرة المسرحية مع مراعاة مختلف مظاهر اشتغال العلامة داخل الفرجة المسرحية.

أما بالنسبة إلى الفصل المترجم، فهو بمثابة فصل تمهيدي، ركز فيه المؤلف على إبراز أهمية كل من العلامة والمسرح في حياتنا؛ ذلك أن العلامة حاضرة في مختلف المجالات المعرفية وفي كل ما يرتبط بالمعيش اليومي، لذلك فهي أنسب مفهوم من أجل مقارنة الفن المسرحي؛ بوصفه مرآة للواقع وعكسا للحياة. كما حاول المؤلف أن يثير الانتباه إلى بعض الاختلافات المصطلحية المرتبطة بكل من علم العلامة والمسرح، منتها في ختام هذا الفصل إلى التأكيد على أن المسرح هو الشكل التعبيري الذي يحظى أكثر من غيره بحضور العلامة واشتغالها بشكل يخدم الغايات الجمالية والتداولية.

نص الترجمة

ماتت السيميولوجيا، ماتت العلامة. هذه هي القولة الماثورة المتداولة منذ مدة. بالإضافة إلى أن مجموعة من المصطلحات السيميائية أصبحت موضحة راجحة في سنوات الستينيات والسبعينيات من هذا القرن [القرن العشرين]. لقد بخش بعض ممن سأسمهم "البعديون" السابقة "ما بعد" (*Post-*) حقها، مما أفرز سيلا من المصطلحات من قبيل: ما بعد حديث، وما بعد الحداثة، وما بعد التحديث، وما بعد البنيوية، وما بعد السيميائية، بل وأيضا ما بعد بعد الحديث، وما بعد الطلائعية (وهي كلمات تخطف الأبصار بالنظر إلى منطقيتها) (4). وبالرغم من كل هذا، فإن علم العلامة في أزهى فترات، حتى لا نقول إنه في أفضل حالاته على الإطلاق.

ماتت العلامة، عاشت العلامة.

تسجل ببيوغرافيا السيميائيات حوالي أحد عشر ألف عنوان (5)، فقط بالنسبة إلى العقد الممتد من 1975 إلى 1985. وإذا كنت قد قلت إن علم العلامة يعيش ربما أفضل

حالاته على الإطلاق، فذلك لأنه يرتبط بميادين جد متنوعة: كالبيولوجيا، واشتغال المجتمع، والتسويق، واستراتيجية الصراع النووي، والكيمياء، والتحليل النفسي، والإثنولوجيا، والتصميم، وفيزيولوجيا الأعصاب، والعلوم السياسية، وصناعة السيارات، والهندسة الوراثية، والقانون، والبستنة، وعلم الخرائط، والعرافة.

قال سيميائي شهير: "السيميائيات قطار يمضي، هناك من يستقله وهناك من يغادره. لكن القطار يستمر في مسيرته". يستمر هذا القطار في مسيرته منذ العصور القديمة؛ بحيث إن المحطات التي تميز مساره هي في الغالب أسماء شهيرة: أفلاطون وأرسطو، والقديس أغسطين وأبيلا، وروجر بيكون وأوكام، وفرانسيس بيكون ونحويو بور رويال المناطقة، ولوك وليبنيتز، وبيركلي وهاريس، وكوندياك وهيغل، وأخيرا بورس وسوسير (6) حتى لا نقفز على بداية القرن العشرين. يستمر القطار في سيره، وسيبقى كذلك على الأرجح حتى نهاية البشرية، أو على الأقل حتى نهاية حضارتنا.

مات المسرح، عاش المسرح.

لقد تم التنبؤ بنهاية المسرح بصفة مستمرة؛ باعتباره شكلا فنيا وشكلا من أشكال التسلية، وذلك منذ العصر الروماني. وتعبّر حقبنا الحالية بخصوص هذا الموضوع عن كارثة مهولة؛ إذ تعلن أعمال درامية نفسها نهاية المسرح أو نهاية مسرح ما. بيد أنه بالرغم من ظهور السينما وتطورها، وبالرغم من الحضور الكاسح للتلفزة (أو ربما بفضلها)، فإن الظاهرة المسرحية لم تعرف فترة ازدهار كهذه التي تعيشها الآن، على الأقل من الناحية الكمية؛ فهناك باستمرار عروض متعددة يشاهدها جمهور عريض على الدوام.

إن التفكير حول العلامة والمسرح يحضر في الحضارة الأوروبية منذ البدايات الأولى للفكر الفلسفي والجمالي. ولا يعرف الكثيرون أن العلامة والمسرح يحضران بشكل

متزامن في كتابات عدد من الفلاسفة والمنظرين، ابتداءً بأفلاطون وأرسطو. كما أن مفهوم العلامة يحضر مرتبطاً ببعض مظاهر الفرجة لدى كل من القديس أغسطين، وفرانسيس بيكون، وميشيل دو بور، وجون - باتيست دو بو، وشارل باتو، وجوزيف - ماري دو جيرونو(7). وإذا كانت الإحالات إلى المسرح قليلة في كتابات بورس وسوسير، فإن بعضاً من تابعيهما يُبينون عن اهتمام لا يستهان به بالظاهرة المسرحية.

ولم تر دراسات منظمة أكثر تربط المسرح بعلم العلامة النور، إلا خلال العقد الممتد من 1931 إلى 1941. وهي دراسات كل من أوتاكار زيتش، وجون موكاروفسكي، وبيتر بوكاتيريف، وجاندريتش هونزل(8). غير أن بعض هؤلاء الكُتاب متمكنون من المسرح، بدون أن تتوفر لديهم كفاءات كافية بخصوص السيميولوجيا، والعكس هو الحاصل بالنسبة إلى البعض الآخر. وحدهما كارل بروزاك، وجيري فيلتروسكي(9) متمكنان من المجالين معاً، غير أننا سنكون، والحالة هذه، في سنوات 1939-1940، أي في بداية النكبة العالمية.

وقد شكلت بعض جمل رولان بارت *Roland Barthes* المتناثرة بين تضاعيف مؤلفاته منذ 1956، وخاصة بعض الصفحات المنشورة سنة 1963 (والتي تحمل التأكيد الملهم بأن "المسرح يشكل موضوعاً سيميولوجياً متميزاً"(10))، [شكلت] تحولا نوعياً. وهكذا، سبرز الرغبة في تشجيع سيميولوجيا للمسرح.

وفيما يخصني، فقد استقلت قطار "السيميولوجيا" في سنة 1966، بعد قراءتي لكُتاب بارت "مبادئ في علم الأدلة"(11) *Eléments de Sémiologie*، وتوجهت على الفور نحو مقطورة "المسرح"، محاولاً تطبيق بعض مما اكتسبته من علم العلامة على ميدان عزيز عليّ منذ مدة طويلة. وقد كانت أول نتيجة ملهوسة لهذه الطريقة، مقال نُشر في *Diogenè* (عدد 61، يناير

- فبراير 1968) تحت عنوان " العلامة في المسرح، مقدمة لسيميولوجيا فن الفرجة". وهو نفسه البحث الذي تم توسيعه، مشكلا القسم الثالث من كتابي "الأدب والفرجة" (صدرت الطبعة الأولى سنة 1970، والثانية سنة 1975)، تحت عنوان "في رحاب العلامات".

ومنذ 1970، أفرد خمسون كتابا لسيميولوجيا المسرح، بشكل كلي أو في قسم كبير منها، خاصة بالفرنسية، الإيطالية، الألمانية، الإنجليزية، الإسبانية، التشيكية، البولونية، واليونانية (...). كما أن المقالات [حول الموضوع] في المجلات المتخصصة وغيرها لا تعد ولا تحصى، فضلا عن كون التعليم الجامعي المتخصص يتطور في عدد من بلدان العالم.

ويبدو لي أنه من الضروري التوقف قليلا من أجل ضبط الثنائية المصطلحية سيميولوجيا - سيميائيات. فمن المعلوم أن هذه الثنائية تفسر أساسا بمصدرين اثنين؛ هما سوسير (الفرنكوفوني) وبورس (الأنجلوفوني). وكان من الممكن أن نستغل وجود المصطلحين معا، وهذه الإمكانية واردة في جميع اللغات (semiotics, semiology...)، في إقامة الفرق بين مفهوميهما. وعلى سبيل المثال، فقد فضل بعض الكتاب أن يوقفوا كلمة "سيميائيات" على النظرية أو العلم العام للعلامة، في حين جعلوا "سيميولوجيا" تدل على تطبيق هذه النظرية على هذا المجال أو ذاك. غير أن البعض الآخر ميز بينهما بطريقة معاكسة؛ فربط السيميولوجيا بالعلم العام، والسيميائيات بالتطبيقات الخاصة أو النوعية. وبالنظر إلى غياب إجماع حول هذه المسألة، فإني أعتبر المصطلحين متماثلين وقابلين للحلول محل بعضهما البعض، كما يذهب إلى ذلك، حاليا، عدد من السيميولوجيين - السيميائيين...

كما نلجأ إلى تحديد آخر يخص مصطلح "مسرح"؛ وذلك نظرا لتعدد دلالاته لاسيما في اللغة الفرنسية. فهو يهيم أساسا الأدب الدرامي من ناحية، والفرجة من ناحية أخرى؛ أي العرض المسرحي.

تعيّ سيميولوجيا المسرح اليوم خصوصيتها المعزوة إلى تعدد وسائل التعبير، وتنوع المواد الموظفة، وكثرة مستويات التواصل المتزامنة؛ وذلك بعد أن كانت اللسانيات، بوصفها علما رئيسا، تهيمن عليها لعدة عقود خلت. ومن بين كل الفنون، وربما من بين كل مجالات النشاط الإنساني، وحده الفن المسرحي الذي تتجلى فيه العلامة بالشكل الأكثر خصوبة، وتنوعا، وكثافة. فالمسرح يوظف الكلام مثلما يوظف أنساقا دلالية غير لغوية، كما يعتمد في نفس الآن إلى العلامات السمعية والعلامات البصرية. بالإضافة إلى هذا، فهو يستثمر الأنساق المخصصة للتواصل بين الناس، وكذا الأنساق التي أفرزتها ضرورات العمل الفني. ويعترف، أيضا، من العلامات المتواجدة في كل مكان؛ في الطبيعة، وفي مختلف المهن، وفي مجمل ميادين الفن. ولا يوجد، عمليا، أي نظام دلالي، بل لا وجود لعلامة لا يمكن استغلالها في الفرجة. لكل هذه الأسباب، يقدم المسرح أرضية خصبة، ملائمة لمقارنة العلامات الأكثر تنوعا، ولدراسة السيميوز Sémiiose؛ أي دراسة اشتغال العلامات في الحياة الاجتماعية.

هوامش وإحالات

1- هذه ترجمة للفصل الأول من كتاب:

Tadeusz Kowzan, *Sémiologie du Théâtre*, série «Littérature», Edition NATHAN, 1992, pp: 5-9.

ملاحظات:

-العنوان الفرعي للترجمة من وضع المترجم؛

-هوامش المؤلف تحمل الأرقام التالية: 4، 5، و10؛

-هوامش المترجم تحمل الأرقام التالية: 1، 2، 3، 6، 7، 8، 9، و11؛

-الكلمات والعبارات بين معقوفين [...] هي إضافات من المترجم زيادة في الإبانة والتوضيح.

2- باحث بولوني (1922-2010)، بدأ مسيرته المهنية بالأكاديمية البولونية للعلوم (معهد فارسوفيا للفنون)، قبل أن ينتقل إلى فرنسا؛ حيث اشتغل أستاذا جامعا بجامعة ليون الثانية، ليستقر بعد ذلك في جامعة كاين Caen منذ سنة 1975 وإلى حدود سنة 1992. عُرف "كاوزن" باهتماماته المتعددة؛ حيث اشتغل بالتأريخ للأدب والتنظير له، وبالأدب المقارن، وبالسيميولوجيا، بالإضافة إلى المسرح. نشر عددا كبيرا من الدراسات في المجالات الأوروبية، بالإضافة إلى عدة كتب باللغتين الفرنسية والبولونية، منها على سبيل المثال:

-المسرح المرآة: الميتا مسرح من العصور القديمة إلى القرن الحادي والعشرين؛
-الأدب والفُرجة؛

3-معلومة وردت في الصفحة الرابعة من غلاف الكتاب المشتغل عليه في هذه الترجمة.

4-ساق "فلاديمير كرينزينسكي" Wladimir Kryszinski عددا كبيرا من الأمثلة لهذه الظاهرة، في مداخلة له بعنوان "سيموز سابقة مصطلح حداثة" في المؤتمر الرابع للجمعية الدولية للسميائيات (بيرنيان، أبريل 1989). وقد أثارت هذه المبالغة المصطلحية المفرطة سخرية "باتريس بافيس" Patrice Pavis، الذي قال: "من يقول ما بعد الحدائة يقول حداثة، ومن يقول حداثة يقول كلاسيكية".

5- Achim Eschbach, Viktoria Echbach-Szabo, **Bibliography of Semiotics, 1975-1985, Amsterdam-Philadelphia, John Benjamins, 1986, t. 1-2**
Achim Eschbach, Viktoria Echbach-Szabo, **Bibliography of Semiotics, 1975-1985, Amsterdam-Philadelphia, John Benjamins, 1986, t. 1-2.**

6-وهم على التوالي:

Platon et Aristote, Saint Augustin et Abélard, Roger Bacon et Occam, Francis Bacon et les grammairiens-logiciens de Port- Royal, Lock et Leibniz, Berkeley et Harris, Condillac et Hegel, enfin Peirce et Saussure.

7-وهم على التوالي: *Michel de Pure, Jean-Baptiste du Bos, Charles Batteux, Joseph-Marie Degérando.*

Michel de Pure, Jean-Baptiste du Bos, Charles Batteux, Joseph-Marie Degérando.

8-وهم على التوالي: *Otakar Zich, Jan Mukarovsky, Petr Bogatyrev, Jindrich Honzl.*

9-وهما على التوالي: *Karel Brusak, Jiri Veltrusky.*

10-نصوص نشرت مرة أخرى في كتاب "بحوث نقدية": *Essais Critiques*, Paris, Ed. du Seuil, 1964.

11-صدر هذا البحث للمرة الأولى في مجلة "تواصل" *communication*، عدد: 04، باريس، 1964. نقله إلى العربية: "محمد البكري. متوفر للقارئ العربي في الطبعة التالية:

رولان بارت، *مبادئ في علم الأدلة*، ترجمة وتقديم: محمد البكري، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط: 02، 1987.

ورغم الارتباك المصطلحي الذي يبدو منذ عتبة العنوان، إلا أنه ارتباك مبرر بالنظر إلى جدة المصطلح/العلم على الباحث العربي آنذاك؛ فعوض استعمال "سيمولوجيا"، أراد المترجم أن ينهل من المعين المعجمي العربي واختار منه "علم الأدلة".